ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

الإماء المثقفات ومجتمع الغرب الإسلامي الوسيط: بين التأثير والتأثر

ذة: ابتسام الزاهر*

***summary**: **Educated slaves women and The middle Western Islamic Community between the influence and influenced**

Despite the paucity of references to the influence and influenced by slaves in Islamic society of Western cultural life, but by collecting little nuggets of sources and references, we can confirm the fact that integration and harmony and the fertilization of culture that they carried with recipient's community culture.

Slaves were brought by either captivity Or by buying from different environments, taken with them their culture and extended her in communities receiving them. their presence was an actor and has a clear impact on cultural life, translated their presence and their wide culture be considered and invested in the development of an open society lives on other cultures, races and formed an important cultural bridge opened on different directions (palaces, the public role, the science councils), As a result of their association and their proximity of various segments of society.

Slaves had great attention and particular care, the owners or the mediators sometimes Kneed to teaches and educated theme and slaves theme self turn on knowing religion's things and agree to attend Councils of science and scientists, in that effort, we're technically astute on language, grammar, poetry, music and composition. Particularly in literature and melodies.

Replete with biographies and layered models for slaves had a high share of science, Some, they was able to earn a high position within the society in which they live, and left some important intellectual heritage. But despite the big influence on cultural life in the Islamic community attest to the East and West, never had intercourse with interest in the sources that have sought to obscure their identity and their impact in various walks of life, especially cultural side, This was suitable for digging up sources and compile disparate signals, to highlight the Women's contribution in cultural life of the middle Western Islamic Community, and it remains a researcher digging more into this field so you can get a clear picture of their culture, and change the perception of inferiority to today's society.

*أستاذة بمختبر البيبليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي –كلية الأداب– جامعة ظهر المهراز– فاس– المغرب

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

مقدمة: غالبا ما ارتبط مصطلح الرقيق بالدونية والاستعباد والخدمة في البيوت والحقول، ونادرا ما تصادفنا في المصادر والمراجع إشارات إلى ثقافة الرقيق وتعليمه وخاصة الإناث، حيث تكاد تغيب المباحث الخاصة بثقافة الإماء في الدراسات التي تناولت موضوع الرقيق والمجتمع. فانصرفت هذه الدراسات إلى جوانب أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية وأهملت الحمولة الثقافية للإماء.

سنحاول في هذه المقالة إغناء ما ندر في هذه الدراسات خاصة في الجانب المتعلق بتعليم الإماء وثقافتهن، التي لطالما ارتبطت الإشارات إليهن بالمتعة والتسري والطرب والغناء والرقص والمكيدة...، إلا أن الشذرات المتناثرة في ثنايا المصادر والمراجع تخالف ذلك، فجلب الإماء من بيئات مختلفة، جعلهن مثالا عن سعة الثقافة وكثرة التجربة والمراس في مجالات عدة، فقد حملن معهن لكثرة ترحالهن "بيعا وشراء"، أساليب خاصة وعامة في العيش واللباس والأكل واللغات والتفكير...، ومما لاشك فيه أنهن مارسن تأثيرات كبيرة على المجتمعات المستقبلة لهن.

إذا كنا نؤكد إهمال وانعدام دراسات قائمة اهتمت بالموضوع، فإننا لانعدم وجود تفاصيل وإشارات تصب في هذا الاتجاه[1]، وسنحاول في هذه المداخلة جمع شتات هذه الشذرات، وذلك عبر أربعة مباحث:

-تعليم الإماء.

-جوانب من تأثير الإماء المثقفات في المجتمع.

-نماذج لإماء مثقفات.

-تراث الإماء.

1- تعليم الإماء:

1-1- تعليم الإماء من منظور ديني: مما لاشك فيه أن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، كان يحث على ضرورة تعليم الإماء شؤون دينهم وحيثيات دنياهم، خاصة مع كثرة الفتوح على عهده، ووفرة السبي من دار الكفر، فقد علم عليه الصلاة والسلام مدى تأثير السبي على المنظومة الاجتماعية التي كان يحرص على تسييرها وفق مرجعية دينية إسلامية، دون أن يسمح بتأثرها بثقافة الوافدين الجدد وخاصة الإماء.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

نتيجة لذلك حث صلى الله عليه وسلم على ضرورة تلقين الإماء أمور الدين، فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران"[2]. وقد كان في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى تعليم الإماء تأكيد على سماحة الإسلام والدعوة إلى المساواة، وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم المثال الصادق لذلك، بعتقه وتعليمه لصفية بنت حيي أمور دينها، واستيلاده لمارية القبطية أم ولده إبراهيم.

كما كانت للإماء رغبة جامحة في التعليم وحضور مجالس العلم، وكن أحيانا تبدلن كل ما في وسعهن لتحقيق ذلك، وأحيانا قد تقطعن مسافة طويلة لحضور مجلس علمي، ومثال ذلك الأمة "غزالة" أمة الواحد بجبل نفوسة، التي "كان حالها إذا نومت مواليها تسري في الليل فتحضر مجلس الذكر عند أبي محمد عبد الله بن الخير"[3]. وهناك نماذج عديدة لإماء بجبل نفوسة كن تقطعن أميالا لحضور مجلس امرأة عالمة إباضية[4]. وعموما فقد فشي العلم في جبل نفوسة "وشاع حتى أن خدمهم وإماءهم إذا خرجن للاستسقاء لا يرجعن حتى يذكرن بينهن مسائل كتاب ماطوس، وفيه ثلاث ماية مسئلة ومواعظ كتاب الإخوان"[5].

كما كانت الإماء شديدات الحرص عل تعلم أمور دينهم ولا أدل على ذلك من الأمة التي تعلقت بأبي محمد التغرميني أحد رجالات الإباضية ليعلمها توحيدها[6].

كل هذه النماذج التي ذكرناها تؤكد حرص الإماء على تثقيف أنفسهن انطلاقا من رغبة ذاتية، وفي المقابل وقفنا على نماذج لخلفاء ورجال فكر وتجار رقيق حرصوا على تعليم إمائهم مختلف الآداب والفنون والعلوم، من أمثال الخليفة الحكم المستنصر، الذي أمر أبا القاسم سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصاري أن يعلم وصيفة له أخرجها من قصره، التعديل وخدمة الاسطرلاب ...[7]. وتاجر الرقيق محمد بن الكناني الذي حرص على تعليم قيانه "الكتاب والإعراب وغير ذلك من فنون الآداب[8]. والعالم الإباضي الذي خاطب أمة قائلا: "ما أحسنك إن عرفت توحيدك، فتعلقت به أن يعلمها توحيدها"[9]، فبقدر ما تنم هذه الإشارة

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

عن رغبة الأمة في تعلم أمور دينها وقد أشرنا لذلك سابقا، بقدر ماتنم أيضا عن سعي رجال العلم إلى تعليم إمائهم.

لكن بغض النظر عن الجهة التي تسعى إلى تعليم الإماء سواء كانوا خلفاء أو رجال فكر وعلم أو تجار رقيق، يبقى لدينا تساؤل مهم يطرح نفسه وهو كالتالي، هل حرصهم هذا نابع من منطلق ديني، أم من رغبة ما لتحقيق مصالح معينة؟ وهو ما سنحاول الإجابة عنه في العنصر الموالي.

1-2- الانحراف عن المرجعية الدينية في تعليم الإماء: إن المطلع على مضان التاريخ الإسلامي والعربي تصادفه مفارقة عجيبة، مفادها الانحراف عن المرجعية الدينية التي أوصى بها نبينا عليه الصلاة والسلام فيما يخص تعليم الإماء، فكان وراء اهتمام بعض السادة بتعليمهن وتأديبهن غاية خاصة بهم، بل ذهب النخاسون إلى أبعد من ذلك في أبشع صور الاستغلال والاسترزاق، فجعلوا من تعليم الأمة وتأديبها وتلقينها مختلف العلوم والفنون تجارة رائجة لا تبور. فقد كانوا في زمن إبراهيم الموصلي (125-189هـ/742-804م) وابنه إسحاق (150-236هـ/767-850م)[10]، يبتاعون الجواري اللاتي يتوسمون فيهن الذكاء وهن صغار السن، فيثقفونها ويعلمونها الأشعار والغناء[11]، ويحفظونها القرآن والأحاديث النبوية، ويعلمونها فنون الأدب والنحو والعروض أو فنا من فنون المساجلة الشعرية[12]، ثم يبيعونها بخمسة أضعاف ثمن شرائها[13]، في حين يذهب ابن بطوطة إلى أبعد من ذلك حينما يؤكد على مدى الارتباط بالأمة المتعلمة، حيث يجعل أصحابها قيمتها الثقافية أكثر من قيمتها المادية، وهو ما يجعل من الصعوبة بمكان التحصل على جارية مثقفة متعلمة، ففي خبره عن أهل تاكيدة قال: "لا شغل لأهل تاكيدة سوى التجارة، يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون من كل ما فيها من فاخر الثياب وسواها، ولأهلها رفاهية وسعة حال فلهم عدد كبير من العبيد من الجنسين، ولا يبيعون الإماء المتعلمات إلا نادرا وبالثمن الكثير، ولم يحصل ابن بطوطة نفسه على أمة متعلمة إلا بعد جهد جهيد، فالذين كانوا يملكون إماء متعلمات رفضوا بيعهن، ثم إن صاحبها الذي ارتضى بيعها ندم، عقب ذلك ورغب في الإقالة...وكاد أن يجن و يهلك أسفا"[14].

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

وممن اشتهر ببيع الإماء المتعلمات واحترف الكذب والزور في بيع القيان محمد بن الكتاني المتطبب، وفيه يقول ابن بسام "وكان محمد بن الكتاني المتطبب فرد أوانه وباقعة زمانه مثقفا لسوق قيانه، يعلمهن الكتاب والإعراب وغير ذلك من فنون الآداب، وكان متحيلا كثير الترقيع والاستعمال لضروب الكذوب، فربما أنشأ عدة رسائل فينحلها القيان ويبيعهن بأغلى الأثمان، وقد ذكر في أخبار بن رزين أنه باع منه قينة بثلاثة آلاف دينار حسب ما حكاه أبو مروان"[15].

ورغم اشتهار بن الكتاني بالزور والكذب وكثرة المبالغة، إلا أن له نص شهير يمكن أن يمدنا بمختلف الفنون والعلوم والمعارف التي كانت مطلوبة في القيان المرتفعة الأثمان، فله فصل من رقعة يصف فيها تعليمه القيان فيقول "فأنا منبه الحجارة، فضلا عن أهل الفدامة والجهالة، واعتبر ذلك بأن في ملكي الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات وهن الآن عالمات حكيمات منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقاويات اسطرلابيات معدلات نجوميات نحويات عروضيات أديبات خطاطيات. تدل على ذلك لمن جهلهن الدواوين الكبار التي ظهرت بخطوطهن في معاني القرآن وغريبه، وغير ذلك من فنونه من علوم العرب من الأنواء والأعاريض والأنحاء وكتب المنطق والهندسة وسائر أنواع الفلسفة، وهن يتعاطين إعراب كل ما ينسخنه ويضبطنه فهما لمعانيه ولكثرة تكرارهن فيه"[16].

فكل أمة نالت حظا من العلم والثقافة وبرعت في مختلف العلوم والفنون والآداب، يكون ثمنها مرتفعا على حسب ما توفر فيها من خصائص، كما تتحكم في السعر أحيانا عوامل أخرى ارتبطت بالجنس والعصر الذي عاشت فيه الإماء، ففي زمن الفتوح وتدفق السبايا كانت تنخفض الأسعار لكثرة العرض، فقد تباع الجارية الجميلة المثقفة بأقل من مائة دينار أما إذا قل العرض وكثر الطلب فأثمانهن ترتفع، فيرتفع ثمن الجارية التي كانت تباع بمائة دينار إلى ما هو أكثر من ألف دينار[17]. إضافة إلى عامل السن الذي يعتبر حاسما في تحديد مصير الأمة، فإذا كانت (صغيرة) في سن يمكن فيه تلقينها مختلف العلوم والمعارف، غالبا ما تحظى بحياة مريحة وبعناية خاصة، أما إذا كانت قد بلغت حدا من السن، إذ لا محال إلى تعليمها وتخريجها في الفنون والآداب، أو تهذيبها بآداب المجتمع فيكون حظها من الرعاية قليل، أو تكون قيمتها

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

موقوفة على ما فيها من الفتنة والفتوة، فإما تحظى لدا سيدها، أو تحول للخدمة في البيوت[18]، مما يؤكد بشكل جلي تراتبية الإماء.

نستخلص مما سبق أنه غالبا ما كان هناك دافع خاص وراء عناية الأسياد بتعليم إمائهم، إما لتحقيق الربح المادي كما فعل تجار الرقيق، أو إعدادهن لشغل مناصب إدارية معينة، أو لأداء خدمة ما داخل قصور الخلفاء ورجال السلطة. وبذلك يكون السادة انحرفوا في كثير من الأحيان عن المرجعية الدينية في تعليم الإماء.

2- جوانب من تأثير الإماء المثقفات على المجتمع:

2-1- تأثير الإماء المثقفات في حياة الأسرة: من بين الأمور المسلمة أن تؤثر الأمة في أفراد الأسرة التي كانت تعيش معها، فبالإضافة إلى مهام الخدمة من كنس وطبخ...، اتخذت الجواري كمرضعات للأطفال فقد احتلت الأمة المرضعة مكانة هامة في المجتمع الحضري خاصة لدا الفئات الميسورة، ذلك أن عدم إمكانية تقديم لبن الحيوان إلى الأطفال الرضع وصغار السن يدفع إلى الاستعانة بالمرضعة، وهو ما له أثر في تسريع وثيرة الإنجاب، خاصة لدا الأسر التي توفرت لها الإمكانيات المادية الكافية[19]، وقد ذهب البعض إلى تفضيل الزنجيات للاختصاص بالرضاعة، ولعل أشهر من أرضعته أمة في بلاد المغرب هو عبد الله بن فروخ، ففي حديثه عن زيارته لمدينة الكوفة طلبا للسماع من سليمان بن مهران الأعمش، "أنه عندما دق بابه خرجت جارية فقالت "ما بالك على بابنا؟ فقلت أنا رجل غريب وأعلمتها بخبري، فقالت وأين بلدك؟ فقلت إفريقية، فانشرحت لي وقالت أتعرف القيروان؟ قلت لها ومن أهلها أنا، قالت لعلك تعرف دار ابن فرخون؟ ثم تأملتني وقالت عبد الله؟ قال نعم فإذا هي جارية كانت في بلادنا- أو قال من بلادنا، وأظنه قال: كنت رضيعا لها فأبعناها وهي صغيرة-فصارت إلى الأعمش"[20].

إلى جانب ذلك أنيطت بالإماء مهمة أخرى أكثر حساسية وهي مهمة تربية الأبناء وهو ما انعكس على نفسية الأطفال، خاصة أن هذه المهمة كانت تطلع بها فئة خاصة من الإماء المثقفات، فهذا ابن حزم[21] يحكي قصة حبه لجارية كانت تعمل في بيت أسرته، أسرف في

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

وصف محاسنها الخلقية والخلقية، وفي ذلك دليل على التأثير الكبير الذي مارسته الأمة عليه، فاحتفظت ذاكرته بذكريات جميلة عنها[22].

كذلك كانت بعض الإماء تطلع بأمور التمريض والتطبيب، فغالبا ما اعتنت بصحة سيدها العليل، وصحة أبناء الأسرة، وانطلاقا من هذه المهمة الجسيمة التي مارستها الإماء داخل البيوت التي انتمين إليها، وانطلاقا من العلاقة الوطيدة التي ربطتهن بمكون مهم من مكونات الأسرة (الأبناء)، نستطيع أن نجزم أن الإماء شكلن جسرا ثقافيا مهما، عبرت من خلاله ثقافتهن ولغاتهن وعاداتهن ومجمل ما حملنه معهن من بيئاتهن الأصلية، وأفرغن ذلك في المجتمع المستقبل لهن من خلال البيوت الجديدة التي دخلنها وأثرن فيها، وبالتالي ساهمن وشاركن في تغير حاسم في عادات المجتمع وتقاليده[23].

وتجدر الإشارة أيضا إلى تأثر الإماء ذوات الأصول المختلفة، خاصة صغيرات السن منهن، بالثقافة العربية، إذ ينشأن نشأة عربية خالصة ويخلقن بعادات العربيات[24]، بحيث تلين ألسنتهن في الكلام حتى تكاد تزول عنها آثار الأصول التي تحدرت منها[25].

2-2-جوانب من مساهمة الإماء المثقفات في الحياة العامة: تحفل كتب التراجم والطبقات بنماذج من إماء نالت نصيبا وافرا من العلم وأثرت في الحياة العامة للمجتمعات المستقبلة، ففي الأندلس خلال عصر الإمارة تجلت أهمية الجواري وكثرتهن في توفر المدنيات منهن وحدهن على دار خاصة بهن في القصر...، وقد اشتهرت من الجواري المثقفات اللاتي كن في قصر عبد الرحمن الثاني، قلم وفضل وعلم، عرفن بثقافتهن الواسعة خاصة في الأدب والألحان[26]، فقد كانت فضل جارية حادقة بالغناء عاملة كاملة الخصال، نشأت وتعلمت ببغداد. وقلم ذات فضل وعلم في الحظوة عند الأمير، كانت أندلسية الأصل رومية من سبي البشكنس، وحملت صبية إلى المشرق فوقعت بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم وتعلمت الغناء فحذقته، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الآداب. وكانت قمر من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان، جلبت من بغداد وجمعت أدبا وظرفا ورواية وحفظا مع فهم بارع وجمال رائع، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها[27].

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

وكان لزبيدة بنت جعفر "مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها دوي كدوي النحل من قراءة القرآن[28].

وكان لخالد بن برمك (أبو البرامكة توفي سنة 163هـ)، جارية اسمها سرور، أكتب الناس بقلم، وأحسنهم علما كانت توقع بين يديه فتخرج التوقيعات إلى الكتاب، وربما اقترحوا عليها نسخ الكتب لبلاغتها[29].

كما أثرت الجواري في الحياة العامة بتقلدهن لعدة وظائف كان أهمها وظيفة القهرمانة، وإن لم نجد لهذا المصطلح وجود في بلاد المغرب، إلا أن هناك ما يوازيه في هذه الرقعة الإسلامية.

لقد انتشرت القهرمانات في عصر الدولة العباسية، وهي وظيفة تخص الأمور المالية من الدخل والخرج في قصور الخلافة[30]، ولم تبلغ القهرمانة تلك المكانة والمنزلة في دور الخلفاء العباسيين إلا بعد الجد والجهد والتربية والتعليم والتلقين والصقل والتهذيب لكي يتفقهن في العربية[31]، ويحفظن نوادر الأحاديث وظرائف اللغة وأمالي المجالس وشارد الأشعار. وكثيرا ما تجاوزت القهرمانة وظيفتها المتعلقة بالدخل والخرج، مثال أم موسى القهرمانة التي كانت تتحدث باسم مرؤوسيها وتنفذ إجراءات العزل والتعيين لحساب سيدتها[32]، وتتدخل في تعيين أمراء الحج ودفع أرزاق الخدم، وأكثر من ذلك فقد كانت تدبر الأمور مع الوزراء والقواد أيام المقتدر، وتركب المراكب إلى الدار وهي بنت العباس بن محمد بن سليمان بن محمد بن إبراهيم الإمام[33]. إضافة إلى شخصية أخرى في قصر خلافة هشام المؤيد بالله وهي أميمة الكاتبة جارية وحضية الحسين بن حيي، فقد عهد إليها المهدي بن محمد بن هشام بن عبد الجبار بحراسة هشام المؤيد بالله، عندما قام عليه بانقلاب وخلفه وعزله في دار مالكها الحسين بن حيي[34].

كما ساهمت الجواري في عملية نسخ الكتب، ولعل أشهر مثال على ذلك الجارية فضل التي نسخت في عهد الدولة الأغلبية مصحفا بيدها، وحبسته على جامع عقبة بن نافع بمدينة القيروان سنة 295 هـ/907م[35].

كما يكشف المثل الشعبي عن رفقة أمة لأحد القضاة، ويبين مكانة الأمة في ظل سيدها القاضي، "ماتت الخادم جات لمدينة كلها تعزي، مات القاضي ما جا حد"[36].

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

وممن نبغن من الإماء في الأندلس عابدة المدنية أم ولد حبيب بن الوليد المرواني، المعروف بدحون، وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة، حائكة اللون، غير أنها تروي عن مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة، حتى قال بعض الحفاظ إنها تروي عشرة آلاف حديث، وقال ابن الآبار إنها تسند حديثا[37].

ومن المجالات التي برع فيها الإماء مجالات الطرب والغناء، ويضيق المجال عن ذكر من اشتهرت منهن في ذلك، نظرا لكثرتهن وكثرة الدراسات التي أفردت للحديث عنهن، فقد كثرت مجالس الغناء في المشرق والأندلس، فهذا أبو حيان التوحيدي أحصى مجالس الغناء، فوجدها حوالي سنة 360هـ تضم بدجلة 460 مجلسا، يضم كل مجلس جارية من الجواري المغنيات[38].

وهذه قرطبة كثرت فيها مجالس الغناء فكانت ندوات لاجتماعات أدبية وشعرية غنائية، تشدو فيها الجواري المغنيات، وقد مارس زرياب دورا كبيرا في تعليم الجواري فنون الطرب والغناء، لاحتضان قرطبة معهدا خاصا لذلك، وكان المنهج الدراسي لهذا المعهد يشمل تعليم مختلف أنواع العزف والغناء والتلحين والشعر بعروضه والرقص، وكان الإقبال على المعهد عظيما. وقد قامت الجواري المشرقيات اللاتي جئن من بلاد المشرق العربي، والكثيرات ممن تخرجن من هذا المعهد، بتعليم الأحرار من نساء الأندلس تلك الفنون في حشمة ووقار[39].

وهناك عدد ممن ساهمن في تحقيق النهضة الموسيقية بالأندلس كمنفعة التي أصبحت محضية الخليفة عبد الرحمان، ومصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن فلهيل، وفضل من جواري إحدى بنات هارون الرشيد والتي جاءت إلى الأندلس، وعلم التي تميزت بثقافتها العالية، وقلم الأندلسية الأصل، وقمر الأديبة الشاعرة التي عرفت الأندلس[40].

لعل ما جعل الإماء تحظى بهذه المعارف الواسعة هي سياسة الخلفاء والأمراء في التعامل معهن، حيث كان يجري إعدادهن للمهمة التي سيطلعن بها في ميادين الأدب والغناء، وكانوا يعهدون بهن إلى علماء اللغة ليأخذن عنهم أسرار اللسان، ويذكر كتاب المحاسن والأضداد أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرسل في طلب الأصمعي، ليعرض عليه جاريتين أهديتا إليه فوجد أن إحداهن لا تحتاج لمزيد من العلم فهي كاملة الأدب، فصيحة اللسان تروي الشعر وتحفظ القرآن والحديث وتجيد نظم الشعر[41].

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

3- نماذج لإماء مثقفات في العالم الإسلامي:

ر.ت	اسم الأمة	الزمن	المكان	اسم السيد	نوعية ثقافة الأمة	المصدر
1	القهرمانة أم موسى	ق 3 هـ	المشرق	السيدة شغب أم الخليفة أبو الفضل المقتدر بالله	ثقافة واسعة مكنتها من تقلد وظائف مهمة.	ابن كثير البداية والنهاية ج 11 ص 145
2	القهرمانة ست النسيم	ق 7 هـ	بغداد	الخليفة أبو العباس الناصر لدين الله	قلدت خط الخليفة وأجابت عن الرسائل بما رأته	سولاف فيض الله حسن ص 165
3	فضل	ق 3 هـ	القيروان	أبو أيوب أحمد بن محمد	نسخت مصحفا بيدها	شلبي هند القراءات بافريقية...ص 90
4	عابدة المدينة	-	الأندلس	حبيب بن الوليد المرواني "دحون"	روت عن مالك بن أنس كما كانت تسند الحديث	المقري نفح الطيب ص 96
5	قلم	-	الأندلس	الخليفة عبد الرحمن الثاني	ثقافة واسعة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 158-157
6	فضل	-	الأندلس	الخليفة عبد الرحمن الثاني	ثقافة واسعة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 158-157
7	علم	-	الأندلس	الخليفة عبد الرحمن الثاني	ثقافة واسعة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 158-157
8	زمرد	ت 336 هـ	الأندلس	عبد الرحمن الناصر	حصلت على حظ من الثقافة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199

ردمد ISSN 2170–1636 الإيداع القانوني: 2014– 1156 Depot Légal

9	لبنى	ت 374 هـ	الأندلس	الحكم المستنصر	كاتبة الحكم المستنصر وشاعرة ونحوية وبصيرة بالحساب وخطاطة وعروضية	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199
10	أميمة	–	–	الحسن بن حيي	كاتبة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 201
11	مرجان	–	الأندلس	عبد الرحمان الناصر	حصلت على حظ من الثقافة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199
12	نظام	ت 392 هـ	الأندلس	–	كاتبة للرسائل	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199
13	كتمان	ق4هـ	الأندلس	عبد الرحمن الناصر	حصلت على حظ من الثقافة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199
14	مزنة	ت 358هـ	الأندلس	عبد الرحمن الناصر	حصلت على حظ من الثقافة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199
15	راضية	ت 423 هـ	الأندلس	عبد الرحمن الناصر	القراءة والكتابة ولها رحلة إلى مصر والشام كما روي عنها وألفت كتبا	ابن بشكوال الصلة ج 2 ص 361-362
16	إشراق السويداء	ت بعد 443 هـ	بلنسية ودانية	أبو المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي	العربية واللغة والآداب والعروض	ابن عبد الملك الذيل والتكملة س 8 ق2 ص 480-481
17	غاية المنى	ق 5 هـ	الأندلس	ابن صمادح	شاعرة	المقري نفح

ردمد ISSN 2170–1636 الإيداع القانوني: 2014– 1156 Depot Légal

				صاحب ألمرية		الطيب ص 229
18	العبادية	ق 5 هـ	الأندلس	المعتضد عباد بن محمد	أديبة وكاتبة وشاعرة	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199
19	ريحانة	ق 5 هـ	الأندلس	وكأنها من جواري بني صمادح	القراءات	المنوني ثقافة الصقالبة ص 199
20	هند	ق 5–6 هـ	الأندلس	عبد الله بن مسلمة الشاطبي	أديبة وشاعرة	المقري نفح الطيب ص 234
21	العلياء البلنسية	أواسط ق 6 هـ	الأندلس	رجل يعرف بابن صاحب بلس	أديبة وشاعرة	ابن الزبير صلة الصلة ج 5 ص311 (42)
22	عنان	عاصرت الشاعر أبو نواس	المشرق	–	كانت تقارع الشعراء وتنتصر عليهم	أبو العينين سعيد حكايات الجواري ص 37
23	قمر	–	الأندلس	أبو إسحاق إبراهيم بن حجاج	أديبة شاعرة	أبو العينين سعيد حكايات الجواري ص 108
24	ثمل	ق 3–4 هـ	المشرق	أبو الفضل المقتدر بالله	تبوأت منصبا قضائيا مهما	سولاف فيض الله ص127

نلاحظ انطلاقا من الجدول أن معظم الإماء في الجهة الغربية من العالم الإسلامي ينتمين إلى الأندلس، أما فيما يخص المغرب فلم نقف سوى على إشارتين:

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

الأولى تخص الأمة فضل مولاة أبي أيوب أحمد بن محمد، التي نسخت مصحفا بيدها وحبست على جامع عقبة بن نافع سنة 295 هـ بمدينة القيروان[43]. ولا يعرف عن هذه الجارية شيء إلا اسمها الذي أثبتته في نص التحبيس، والذي ورد كالآتي: "هذا ما حبست فضل مولاة أبي أيوب بن أحمد رحمه الله طلبا لثواب الله والدار الآخرة، رحم الله من قرأ فيها ودعا لصاحبتها كتبت بخطها في المحرم سنة خمس وتسعين ومائتين"[44].

والإشارة الثانية تخص أمتين ساهمتا في نشر الدعوى الإسماعيلية إحداهما اشتراها أبا سفيان الذي استقر بتادلا من بلاد المغرب، لغرض مساعدة زوجته في نشر العقيدة الجديدة بين النسوة، والثانية اشتراها الحلواني في الناظور لنفس الغرض[45].

رغم أننا لم نقف على نماذج كثيرة لإماء مثقفات ببلاد المغرب إلا أنه لا يمكن الجزم بعدم وجودهن ويمكن تفسير ذلك بأن من ألفوا كتب التراجم والطبقات ينتمون إلى الأندلس وبالتالي ترجموا أكثر لإماء عدوتهم.

كما يمكن أن نستخلص من الجدول التنوع الثقافي للإماء، فقد برعن في مجالات مختلفة منها اللغة والأدب والنحو والشعر، والعروض والطب والتشريح والنجوم والموسيقى...، بل أكثر من ذلك منهن من كانت راوية مثل عابدة المدنية مولاة حبيب بن الوليد المرواني المعروف بدحون، والتي كانت تروي عن مالك بن أنس وعن غيره من علماء المدينة، وقال ابن الآبار أنها تسند حديثا[46].

كما نشير إلى جارية المتطبب عبد الله الكتاني التي تعتبر فريدة عصرها، "لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان[47]، إضافة إلى إتقانها للعب بالرماح والسيوف والخناجر[48].

ولم يكن أمر الجواري المثقفات أقل شأنا في المشرق الإسلامي، فقد بلغن مكانة مهمة داخل البلاط، وأنيطت ببعضهن وظائف جد مهمة كالقهرمانة ثمل التي جلست للمظالم، وقد اعتبر ذلك بدعة[49]، كما اعتبر دليلا على ضعف السلطة العباسية. وعاتكة المخزومية[50] التي كانت شاعرة فصيحة اللسان،كانت عند التاجر محمد بن القاسم المخزومي في اليمن، وانتقلت إلى بغداد وأصبحت أمة الخليفة أبي بكر الطائع لله عاشت في القرن الرابع الهجري هي

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

والأمة الشاعرة عابد بنت محمد الجهينة[51]. ونشير أيضا إلى القهرمانة ست النسيم التي مارست دورا بالغا داخل القصر في فترة عجز الخليفة أبي العباس الناصر لدين الله، فكانت تكتب الأجوبة بما تراه ولم تكن تصيب دائما[52].

4– تراث الإماء: صحيح أننا لم نقف على مؤلفات وكتب لإماء مثقفات في العالم الإسلامي باستثناء الإشارة التي وردت عن راضية مولاة عبد الرحمان الناصر الأموي، المتوفاة سنة 423هـ/1032م، والتي أشاد بها الفقيه أبو محمد بن خزرج وقال: "عندي بعض كتبها"[53]، بل أكثر من ذلك ذهبت بعيدا في طلب العلم فترددت على مجالسه في كل من الشام ومصر[54].

لكننا يمكن أن نشير إلى لون آخر من التراث الثقافي خلفته الإماء، ألا وهو التراث المعماري، فقد كانت الإماء لاسيما اللاتي نلن حظا من الثقافة في مختلف مناطق العالم الإسلامي، محبات لأعمال الخير والبر لنيل الأجر والثواب، ومن هذه الأعمال بناء المساجد والمدارس، وهناك نماذج عديدة لإماء خلفن وراءهن تراثا معماريا هاما، وبالتالي ساهمن بشكل آخر في نشر العلم، كالجارية فوز التي بنت مسجدا ورباطا بالقرافة الكبرى وأوقفته على أم الخير الحجازية[55]. والجارية التي تزوجها الحافظ والتي بنت مسجدا سمي جهة بيان نسبة إليها، على يد رجل عرف بابن الموفق[56]. والقهرمانة صلف التي اشتراها الخليفة أبو جعفر القائم بأمر الله التي خلفت عدة أعمال عمرانية من بينها مسجد قريب من دار الخلافة[57]، ونماذج أخرى عديدة سندرج بعضها في الجدول الآتي:

ر.ت	اسم الأمة	الزمن	اسم السيد	التراث المعماري الذي خلفته الإماء	المصدر
1	القهرمانة حدق الناصرية	ت 625هـ	أبو العباس الناصر لدين الله	عمرت جامع وهو جامع الظاهر في القاهرة	ابن كثير– البداية والنهاية– ج12 ص215
2	هاجر	ت 646هـ	أبو جعفر المستنصر بالله	بنت رباط للصوفية في الجانب الغربي من بغداد	ابن خلكان– وفيات الأعيان– ج4 ص289
3	بشير	ت 652 هـ	المستعصم أبو أحمد	بنت مدرسة سميت	ابن الساعي– نساء

ردمد ISSN 2170–1636 الإيداع القانوني: 2014– 1156 Depot Légal

				بالمدرسة البشيرية	الخلفاء– ص66
4	القهرمانة صلف	ق5هـ	أبو جعفر القائم بأمر الله	مسجد قريب من دار الخلافة	ابن دحية– النبراس– ص150
5	زمرد خاتون	553هـ	المستضيء بأمر الله	عمرت مدرسة بالجنوب الغربي لبغداد	الكازروني– مختصر التاريخ– ص 242
6	بنفشا	–	–	كانت لها دار جعلتها مدرسة سميت باسمها أوقفتها على الحنابلة للدراسة فيها	ابن الساعي– نساء الخلفاء– ص65
7	راشدة	–	الحاكم	أوصت أن يبنى لها جامع فلما ماتت أمر الحاكم ببنائه وسمي باسمها	نجوى كمال كيره– الجواري والغلمان...ص 23

خلاصة: صفوة القول إنه رغم ندرة الإشارات إلى تأثير وتأثر الإماء بالحياة الثقافية لمجتمع الغرب الإسلامي، إلا أنه من خلال جمع شتات الشذرات المتفرقة في المصادر والمراجع، يمكن أن نؤكد حقيقة اندماج وانسجام وتلاقح لثقافتهن التي حملنها معهن مع ثقافة المجتع المستقبل لهن.

فقد حظيت الإماء باهتمام كبير وعناية خاصة من قبل الأسياد –رغم حرصهم على تحقيق غاية معينة من وراء ذلك– وحرصت الإماء بدورهن على معرفة أمور دينهن، وأقبلن على حضور مجالس العلم والعلماء وبذلن الجهد في ذلك، فنبغت بعضهن في اللغة والنحو والشعر والموسيقى والتأليف...وخاصة في الأدب والألحان.

كان للإماء حضور فاعل وتأثير واضح في الحياة الثقافية، ترجم هذا الحضور تفكيرهن وثقافتهن الواسعة، فساهمن في بلورة حياة مجتمع منفتح على الثقافات والأجناس الأخرى فشكلن بذلك جسرا ثقافيا مهما انفتح على اتجاهات مختلفة (القصور، دور العامة، مجالس العلم)، وذلك نتيجة ارتباطهن وقربهن من مختلف شرائح المجتمع، حتى استطاعت بعضهن أن تكسب مكانة رفيعة داخل المجتمع الذي تعيش فيه.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

لكن رغم تأثيرهن الكبير في الحياة الثقافية في المجتمع الإسلامي بضفتيه الشرقية والغربية، لم تحظى الإماء باهتمام في المصادر التي سعت إلى طمس هويتهن وأثرهن البالغ في مختلف مناحي الحياة وخاصة الجانب الثقافي، ويبقى على الباحث النبش أكثر في هذه المضان حتى يمكن الخروج بصورة واضحة، لما ساهمن به في الحياة الثقافية، وتغيير النظرة الدونية لمجتمع اليوم لهن.

الهوامش:

1-الدراسة التي قام بها الأستاذ عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، الانتشار العربي، الطبعة 1، بيروت، 2004.
ومقالة الأستاذ محمد المنوني، ثقافة الصقالبة، مجلة المناهل، عدد 31، السنة 11، 1984، ص ص 189-209.---2- البخاري (محمد بن اسماعيل)، الأدب المفرد، تحقيق سمير بن أمين الزهيري، مستفيدا من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1998، المجلد 1، ص 107.---3- الشماخي (أبو العباس أحمد بن سعيد)، كتاب السير، تحقيق ودراسة محمد حسن، السلسلة4، المجلد 30، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1995، ص .139 . ---4- نفسه، ص 168-169.---5- الوسياني، سير مشايخ المغرب، مخطوطة مصورة، ورقة33. نقلا عن بنمليح (عبد الإله)، م.س، ص 450. ---6- الشماخي (أبو العباس أحمد بن سعيد)، كتاب السير، م.س، ص 180.---7- ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984،القسم الثاني، ص 495.---8- الشنتريني (أبو الحسن علي بن بسام)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1997، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 319.---9- الشماخي (أبو العباس أحمد بن سعيد)، كتاب السير، م.س ، ص180.
10- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، ط2، القاهرة 1959، ص 245.---11 - الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تصحيح محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1931، ج 1، ص 81.---12- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن الكرم الجزري)، الكامل في التاريخ، مطبعة بولاق، القاهرة، 1254هـ، ج5، ص 286.---13- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار المعارف المصرية، ج 4، ص 189.---- وينظر أيضا الخطيب البغدادي،تاريخ بغداد، م.س،ج 1، ص 82.---14- تاريخ افريقيا العام (افريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر)، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام، اليونيسكو، المطبعة الكاتوليكية، بيروت، 1988، مجلد 4، ص 618.---15- الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، م.س، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 319-320.---16- نفسه، ص 320.---17 - أبو العينين (سعيد)، حكايات الجواري في قصور الخلافة، دار أخبار اليوم، كتاب اليوم قطاع الثقافة، عدد يونيو، 1998، ص 37-38.---18- سولاف فيض الله حسن، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية (132-656 هـ/ 749-1258 م)، ط 1، دار ومكتبة عدنان، بغداد، 2013، ص 50.
19-HEERS (jacques) esclaves et domestiques au moyen âge dans le monde méditerranéen, coll . Pluriel, éd, Fayard, paris, 1981, p 199-200.
20- المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ومساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، 1983، بيروت، ج 1، ص .180
21- ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بنسعيد)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ضبط وفهرست أحمد شمس الدين، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 107 و110.---22- بنمليح (عبد الإله)، الرق في بلاد المغرب والأندلس، م.س، ص .401
23- ابن الساعي، نساء الخلفاء، م.س، ص 41. ---24- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القريشي الأموي)، الأغاني، تصحيح أحمد الشنقيطي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة، بيروت، 1955م، ج12، ص 177.---25- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1969م، ج5، ص89. ---26-

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

المنوني (محمد)، ثقافة الصقالبة، م.س، ص 157-158.---27- المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار الكتاب العربي، 1968، ص 97.---28- كحالة (عمر رضا)، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة علم الرسالة، بيروت، د.ت، طبعة مزيدة وفيها مستدرك، ج 2، ص 36 -37.---29- الزمخشري، ربيع الأبرار، م.س،ج 3، ص 352. ---30- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل الدمشقي)، البداية والنهاية، مطبعة بولاق، القاهرة، 1962، ج8، ص 81.---31- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة المعرفة القاهرة، 1967، ص 49.---32- ابن كثير،البداية والنهاية، م.س، ج 11 ، ص 145.---33- ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط 5، القاهرة، د.ت، ص .32

34- نافع راوية (عبد الحميد)، المرأة والمجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 2006، ص 216. ---35- شلبي (هند)، القراءات بإفريقيا من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العربية للكتاب، 1983، ص 90.---36- بنمليح (عبد الإله)، الرق في بلاد المغرب والأندلس، م.س، ص 455.---37-المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب، م.س، ص 96. ---38 - أبو العينين سعيد، حكايات الجواري في قصور الخلافة، م.س، ص43. ---39- نفسه، ص 104.---40- نفسه، ص 108. ---41- نفسه، ص 37.---42- ابن الزبير (القاضي الرشيد)، كتاب الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، نشر دار التراث العربي، الكويت، 1959،ج 5، ص 311.---43- شلبي (هند)، القراءات بإفريقيا، م.س، ص 90.----44 - ابن حمده (عبد المجيد)، ثقافة المجتمع القيرواني في القرن الثالث الهجري، طبع شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس، 1997، ص 91. وينظر أيضا هند شلبي م.س، ص 90.---45- القاضي النعمان (بن محمد بن حيون التميمي أبو حنيفة)، رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة بيروت 1970، ص 55-57. ---وينظر أيضا: الدشراوي (فرحات)، الخلافة الفاطمية بالمغرب، 296-365هـ/909-975 م، التاريخ السياسي والمؤسسات، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994،ص 78-79.---46 - المقري، نفح الطيب، م.س، ص 96.---47- مؤلف مجهول، مؤلف في أخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس ص 308. ذيل به كتاب البيان المغرب لابن عذاري ج 3. ---48- نفس المصدر والجزء والصفحة.---49- ابن عرنوس (محمود بن محمد)، تاريخ القضاء، المطبعة المصرية الأهلية، القاهرة، 1972، ص 75.---50- الزركلي (خير الدين)، الأعلام قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء والمستعربين والمستشرقين، مطبعة دار العلم للملايين،بيروت،1999،ج 4، ص 289. ---51- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، م.س، ج 1، ص 106. ---52- سولاف فيض الله، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، م.س، ص165.---53- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مطبعة روخس مدريد، 1882-1883، ج 2، ص 631-632.---54- المنوني (محمد)، ثقافة الصقالبة، م.س، ص 194-195.---55- المقريزي (تقي الدين احمد بن علي)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، 1270هـ، ج 2، ص 454.---56- نفسه ص 448.---57- ابن دحية (محمد الدين عمر بن حسين)، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق عباس العزاوي، مطبعة المعارف، بغداد، 1946، ص 150.